صفحات من حياة

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله

للشيخ المجاهد

أبي أنس الشامي

تقبله الله

إعداد وتنظيم وتنسيق:
مؤسسة أنصار الإعلامية

ربيع الأول ١٤٤١ هـ



صفحات من حياة

شيخ الإسلام ابن تيمية (١)

رحمه الله



للشيخ المجاهد

أبي أنس الشامي

تقبله الله

إعداد وتنظيم وتنسيق:
مؤسسة أنصار الإعلامية



ربيع الأول ١٤٤١ هـ

(١) الكتاب تفريغ لمحاضرة صوتيَّة ألقاها فضيلة الشَّيخ المجاهد أبو أنس الشَّامي رحمه الله.


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

قال الشَّيخ أبو أنس الشَّامي رحمه الله :

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ، أمَّا بعدُ :

فحديثُنا اللَّيلة أيُّها الإخوة الأكارم، عن نجمٍ سطعَ وعالِمٍ لمعَ في تاريخ هذه الأُمَّة، يمثِّلُ مدرسة متكاملة، وهو من أبرز العلماء في تاريخ هذه الأمَّة بعد عصر الأئمَّة الكبار، وكان شيخنا عمر الأشقر يقول :

إنِّي لأرجوا على الله أنْ يحشر ابن تيمية مع الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، لما لهُ من حسن بلاءٍ وعظيم جهادٍ في زمن إدبار الإسلام، وصفاء نيَّته وبصيرته في زمن الغبش واختلاط المشارب وتعكُّر النَّبع الَّذي ارتوى منه الصَّحابة رضي الله عنهم.

وقبل أنْ نتحدَّث عن ابن تيمية رحمه الله نحبُّ أنْ نُعرِّج سريعاً وبإختصار وإعتصار إنْ شاء الله على حالة عصره والطَّوامِ الَّتي دُهيت بها الأمَّة، والمحن الَّتي رُميت بها من كلِّ حدبٍ وصوبٍ.

فصل
حالة عصر شيخ الإسلام

فإنَّـهُ كان عـصراً يمـوج بالقلاقـل والفـتن والمحـن والمصائـب، وكان أوَّل ذلـكَ الحـروب الصَّليبيَّـة، هـؤلاء الهمـج الرُّعـاع المتوحِّشـون الَّـذين أقبلوا مـن كلِّ حـدبٍ وصـوبٍ كالـكلاب المسـعورة فهاجمـوا العـالم الإسـلامي وقـد بـدأ ينعـس ويخيـط الكـرى عينيـه، واسـتمرَّت قرنـين مـن الزَّمـان، بـدأت في عهـد المسـتظهر باللَّه -الخليفـة العبَّـاسي- رقم ثمانيـة وعـشرين، وكما قلنـا اسـتمرَّت قرنـين مـن الزَّمـان عـاش المسـلمون فيهـا عـذاباتٍ وألامـاً ودمـاءً.

وهذه الأمَّة كما قال جيلان بن فروة رحمه الله:
الظَّـالم سـيف الله في الأرض، يَنتقـم بـهِ، ثُمَّ يُنتقـم منـه، إذا غفـت هـذه الأُمَّـة سـلَّط الله عليهـا مـن يُؤدِّبهـا لترجـع إليـه.

وكان آخـر ذلـك فتـح إنطاكيَّـة سـنة ٦٦٦ هـ والَّـذي جـاء عـلى يـد القائـد بيـبرس، إنَّمـا شـارك فيـهِ شـيخ الإسـلام بعـد ذلـك في آخـر حصـونِ الصَّليبيـين.

فتـح عكَّـة سـنة ٦٩٠ هـ وكان عمـر شـيخ الإسـلام في ذلـك الوقـت نحـو ثلاثـين سـنة على يد الأشرف خليـل، وشـارك في هـذه المعركـة وسـنذكرُ شيء مـن هـذا إنْ شـاء الله تعـالى وبهـذا إنتهى الوجـود الصَّليـبي مـن عـالم الإسـلام.

لكـن المسـلمين لم يـكادوا يفرحـون بذهـاب الصَّليبـين وانجلائهـم حتَّى دهمتهـم مـن الـشَّرق أعظـم المحـن الَّـتي مـرَّت بتـاريخ الإسـلام -أعـني وقائـع التَّتـار- .

يقول الإمام السُّيوطي رحمه الله عن خروج التَّتار :
هو حديثٌ يأكل الأحاديث، وخبرٌ يطوي الأخبار، وتاريخ يُنسي التَّواريخ، ونازلةٌ تُصغِّر كلَّ نازلةٍ، وفادحةٌ تُطبِّق الأرض وتملؤها ما بين الطَّول والعرض.

وهذا الإمام ابن الأثير رحمه الله صاحب الكامل وقد توفي سنة ٦١٧ هـ ولم يشهد سقوط بغداد، كان شهد أوَّل خروج التَّتار من نواحي خرسان ولم يشهد سقوط بغداد ومع ذلك، الَّذي هو الكارثة الكبرى والفادحة الجُلَّى في تاريخ الإسلام، ومع ذلك يقول :
لقد بقيتُ عدَّةَ سنين مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة إستعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أُقدِّم إليها رجلاً وأُؤخِّر أُخرى، فمن الَّذي يسهل عليه أنْ يكتب نعيَ الإسلام والمسلمين ؟ ومن الَّذي يهون عليه ذكر ذلك ؟
فياليت أمِّي لم تلدني، وياليتني متُّ قبل حدوثها وكنت نسياً منسيِّاً، وكما قلنا وهو بعد لم يُدرك الفادحة الكبرى وهي (سقوط بغداد).

يقول الإمام الذَّهبي :
وبقي السَّيف في بغداد بضعة وثلاثين يوماً، فأقلُّ ما قيل : قُتل بها ثمان مئة ألف نفس، وأكثر ما قيل بلغوا ألف ألف وثمان مئة ألف، وجرت السَّيول من الدِّماء، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وفي هذه المِحنَة لم ينجوا -كما قال ابن كثير- من بطش التَّتر إلَّا الرَّافضة الشِّيعة -أسلافُ حزب الله- وأهل الذِّمَّة، وهؤلاء كما قال ابن كثير رحمه الله :
مع إكرام المسلمين لهم وحمايتهم وحسن العشرة لهم، أظهروا مكنون صدورهم كما فعلوا ويفعلون في كلِّ وقتاً وحين ، حملوا الصَّليب -كما يقول ابن كثير- فوق الرُّؤوس وهم يُنادون بشعارهم : (ظهر الدِّين الصَّحيح دين المسيح)، ويذمُّون دين الإسلام وأهله، بل ألزموا المسلمين بالقيام في دكاكينهم للصَّليب - إذا مُرَّ بهم - وأُهين القضاة والفقهاء لمَّا جاءوا يشتكون إلى متسلِّمها النَّصراني، يعني أنَّ التَّتر سلَّموا وَلاية بغداد والقيام على شؤونها لرجلٍ نصراني.

ثُمَّ يقولون هذه حروب الفِرَنجة ضِدَّ العرب بطوائفهم (المسلمين و النَّصارى)، وهذا كذب فإنَّها حروبٌ صليبيَّة، وقد كان النَّصارى في العالم الإسلامي بل والفرق الضَّالة المبتدعة كالرَّافضة والدُّروز والنُّصيريَّة، كانوا عيبةَ نُصحٍ وخِنجراً في ظهر الإسلام وشوكة في حلقه، كانوا عيبة نُصحٍ للصَّليبيين وللتَّتر من بعدهم.

وفي هؤلاء التَّتر حصلت شُبهة الَّتي قامت في أذهان بعض الناس : كيف يُقاتَلون وهم يقولون : لا إله إلا الله ؟!

وبعد أنْ أسلم أميرهم غازان سنة ٦٩٤ هـ ، وأفتى بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فُتياه الشَّهيرة فُتيا شيخ الإسلام في من بدَّل شرائع الإسلام، وقوَّى قلوب المسلمين على قتالهم وحصلت معركة شُقحُب كما سنذكر إنْ شاء الله تعالى.

وكما قال الإمامُ ابن كثير رحمه الله وهو تلميذ ابن تيمية :
فمن ترك الشَّرع المحكم المنزل على محمَّد بن عبد الله خاتم الأنبياء ﷺ وتحاكم إلى غيره من الشَّرائع المنسوخة، يعني : التَّوراة والإنجيل، كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدَّمها عليه ؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين.

وكانت هذه أوَّلُ حادثة في تاريخ الإسلام أنْ يُوجد مسلمٌ يقول : لا إله إلَّا الله ثُمَّ يكون مَعْقِدُ إحتكامه ومرجع قراره وأقضيتهِ إلى غير كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ.

نعم حصل إنحراف في التَّطبيق لشهوةٍ ورشوةٍ وقرابةٍ، فكانوا يخالفون أحكام الله، لكن الحكم كان لكتاب الله وسُنَّة النَّبيِّ ﷺ.

وكانت هذه أوَّل مرةٍ -كما قلنا في تاريخ الإسلام- أنْ ينتسب أحدٌ إلى الإسلام وأنْ يقول : لا إله إلَّا الله، وأنْ ينطق بالشَّهادتين ثُمَّ يحتكم إلى غير الشَّريعة.

فإنَّ التَّتار هؤلاء كما قلنا أسلموا لكن مكثوا أو لبثوا يتحاكمون إلى الياسق وهو كتاب أَلَّفه لهم أميرهم فيهِ أقضيةٌ شتَّى من القرآن والتَّوراة والإنجيلِ وغيرها ومن عادة التَّتار، وجعل ذلك قانوناً ودستوراً يحتكمون إليه ويرجعون، فوقعت الشُّبهة لبعض العلماء فانتدب لها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ.

وكذلك كما قلنا أُبتلي المسلمون في تلك الفترة بظهور وقوَّة وإنتشار الفرق الباطنيَّة كالرَّافضة والدُّروز والنُّصيريَّة الَّذين يُسمَّون العلويَّة الَّذين يحكمون سوريةَ في هذه الأيام، وهؤلاء كانوا مع كلِّ عدوٍ للإسلام كما قال شيخ الإسلام، وهذا الإمام أبو بكر النَّابُلسي رَحِمَهُ اللهُ أحد أئمَّة الحديث الكِبار، كانت في تلك الفترة قامت دولة الفاطميين العبيديين الَّذين ينتسبون زوراً إلى فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قامت في تونس ثُمَّ انتقلت إلى مصر، وبنى المُعِزُّ مدينة القاهرة، وهؤلاء كانوا زنادقة كما قال أئمَّتنا، يظهرون الرَّفض -يعني التَّشيع- ويبطنون الكفر المحض.

فهذا الإمام أخذوه، أسروه في إحدى المعارك، فقال لهُ سلطانهم : سمعنا أنَّك تُفتي بأنَّ من كان معهُ عشرة سهام فعليه أنْ يرمي تسعةً فينا وواحداً في الرُّوم -يعني يرمي في الرُّوم سهماً وفي هذه الدَّولة العبيدية الفاطميَّة يرمي تسعة أسهم- قال : لا، إنِّي لم أقل ذلك ولكن أقولُ : من كان معهُ عشرة أسهم يجب أنْ يرمي فيكم تسعة ويرمي فيكم العاشرة أيضًا، لأنَّكم غيَّرتم المِلَّة وأردتم إطفاء نور الإلهيَّة.

فقُتل رَحِمَهُ اللهُ، سُلِخَ وهو يقرأ القرآن، أُمر يهودي فسلخهُ وكان يقرأ القرآن إلى أنْ سُلخَت جلدة رأسهِ رَحِمَهُ اللهُ وهو يقرأ كتاب الله تعالى.

وكان الإمام الدَّارقطني إذا ذكرهُ يبكي ويقول : كان أحد الأئمَّة الرَّبانيين رَحِمَهُمُ اللهُ.

وهؤلاء هم الَّذين تعاونوا مع الصَّليبيين وتواطؤوا وتمالؤوا معهم، وبسببهم وخذلانهم وكيدهم ومكرهم سقط بيت المقدس في أيدي الصَّليبيين، ولذلك حرص نور الدِّين الزِّنكي رحمه الله لمَّا بدأ حركة الجهاد على إبطال وإزالة هذه الدَّولة بين يدي قتالهِ للصَّيبيين، ثُمَّ شاء الله تعالى أنْ يكون ذلك على يد صلاح الدِّين رحمهم الله.

وانتشر الباطنيَّة الحشَّاشون ، وهؤلاء الحديث عنهم يطول، وكذلك كما قلنا الدُّروز والنُّصيريَّة وهؤلاء ذهب إليهم شيخ الإسلام بعد معركة شُقْحُب، ذهب ونائب السُّلطان مع كتائب من الجيش، فذهبوا إليهم في جبالهم وكسروهم واستتابوهم وألزموهم بشرائع الإسلام، وكما قال ابن كثير رحمه الله :
فنصرهُ الله عليهم وأبادوا خلقًا كثيراً منهم ومن فرقتهم الضَّالة ، وقد حصل بسبب شهود الشَّيخ هذه الغزوة خير كثير ، وأبان الشَّيخ علماً وشجاعة منقطعة النَّظير.

وهؤلاء النُّصيريَّة -كما قلنا الدُّروز العلويِّون- الَّذين يحكمون سورية، يقول ابن كثير رحمه الله وهذه بعض شناعاتهم وكفرياتهم، يقول :
في سنة ٧١٧ هـ : خرجت النُّصيريَّة عن الطَّاعة وكان من بينهم رجل سمَّوه (محمَّد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله).

فخرج يُكفِّر المسلمين وأنَّ النُّصيريَّة على الحقِّ، واحتوى هذا الرَّجل على عقول كثير من كبار النُّصيريَّة الضُّلَّال، وحملوا على مدينة (جبلة) فدخلوها وقتلوا خلقاً من أهلها -من المسلمين - وخرجوا منها يقولون : لا إله إلَّا علي، ولا حجاب إلَّا محمَّد صلى الله عليه وسلم، ولا باب إلَّا سلمان، وسبُّوا الشَّيخين -أبو بكر وعمر رضي الله عنهما- وصاح أهل البلد : وا إسلاماه، وا سلطاناه، وا أميراه، فلم يكن لهم يومئذ نصير ولا منجد، ثُمَّ بعد ذالك جُرِّدت لهم العساكر فهزموهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجمعاً غفيراً، وقُتل المهدي.

فصل
مولد شيخ الإسلام

كما قلنا كانت الأُمَّة تعيش عصر قلاقل ومحن من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وفي مثل هذه الأجواء الملبَّده، وفي هذا اللَّيل المُكْفَهِرِّ ولد شيخ الإسلام رحمه الله في سنة ٦٦١ هـ يوم الإثنين في مدينة (حرَّان في الشَّام)، وقيل يوم الإثنين في العاشر أو ثاني عشر من ربيع الأول كما قلنا من سنة ٦٦١ هـ ، ثُمَّ انتقل بعد ذلك مع أهلهِ إلى دمشق سنة ٦٦٧ هـ ، وقد ولد رحمه الله في بيت علمٍ، فجدُّهُ اسمهُ : عبد السَّلام ابن تيمية رحمه الله، فجدهُ كان يُلقَّب أو يُكنى (أبا البركات)، وكان أحد الأئمَّة الكِبار، حتَّى قال الإمامُ ابن مالك صاحب الألفية في النَّحو قال : أُلين للمجدِ -جدُّ شيخ الإسلام ابن تيمية- أُلين له الفقه كما أُلين لداود الحديد عليه السلام.

وكان رحمه الله من حرصهِ على وقتهِ وزمانه ، إذا دخل الخلاء لقضاء الحاجة يأمر أحد أولادهِ أنْ يقرأ من كِتابٍ ويرفعَ صوتهُ حتَّى لا يَضِيع شيءٌ من وقتهِ في غيرِ طلب العلم والإنتفاع رحمه الله.

ولقيهُ أحد العلماء مرةً فسألهُ عن مسألةٍ فقال لهُ :
الجواب عنها من ٦٦ وجهاً ، ثُمَّ الوجه الأوَّل كذا ، والوجه الثَّاني كذا، حتَّى سردها كلَّها ثُمَّ قال له : رضينا منك أنْ تُعيدها -يعني لا نريد منك أنْ تجيب عن هذه الأوجه- فقط أعد هذه الأوجه الَّتي قلتها رحمه الله.

وكذلك كان أبوهُ أحد الأئمَّة الكبار من علماء الحنابلة.

فصل
علم شيخ الإسلام

وشيخ الإسلام ﵀ أفتى وعمرهُ ١٩ عامًا وكان مشهوراً بقوَّة حافظتهِ، حتَّى وهو صغير.

حتَّى جاء أحد علماء الشَّام إلى دمشق فسأل عن هذا الغلام الَّذي يتحدَّث النَّاس بأخباره، فمرَّ بالسُّوق وسأل أحد الباعة قال : انتظر يخرج ها هنا يأتي الآن من ها هنا في طريقه إلى درسه، وماهي إلَّا لحظات حتَّى جاء شيخ الإسلام ﵀ وهو طفلٌ صغير ومعهُ سبُّورة ربَّما بهذا الحجم أو أكبر يحملها وماضٍ بها إلى درسه، فناداهُ الشَّيخ قال لهُ :
ياغلام أُكتب فأملى عليهِ بضع عشر حديثًا، ثُمَّ قال لهُ امحها، فمحاها، فقال لهُ : أعدها، فأعادها لم يُخرِم منها حرفاً، ثُمَّ قال لهُ : أُكتب فأملى عليهِ بضع عشر إسناداً؛ المتن : قال رسول ﷺ : ((إنَّما الأعمال بالنِّيات))، الإسناد : الرِّجال الَّذين رووا الحديث حدثنا فلان قال أخبرنا فلان إلى الصَّحابي ثُمَّ إلى النَّبيِّ ﷺ، فأملى عليهِ بضعة عشر إسناداً ؛ ثُمَّ قال لهُ : أُمحها فمحاها، فقال : أعدها، فأعادها لم يَخْرِم منها حرفاً، فقال : إنْ عاش هذا الصَّبي ليكوننَّ لهُ شأن، وهكذا كان ﵀ .

وكان أيضاً في صغرهِ يمرُّ بيهوديٍّ، وكان هذا اليهوديُّ قد تفرَّس فيهِ النَّجابة، فكان يعترضهُ فيسألهُ عن بعض المسائل في الكتب المقدَّسة، وماهي إلَّا فترةٌ يسيرة حتَّى أسلم هذا اليهوديُّ على يد هذا الغلام الصَّغير ﵀ .

والحديث عن علم شيخ الإسلام ﵀ حديثٌ طويلٌ وليس مجاله هذا، ولكنَّنا نُريد أنْ نتحدَّث عن بعض خِصَالِه وصفات شيخ الإسلام الَّتي تميَّزَ بها وفاق بها سائر أهل عصرهِ بل ومن جاء بعدهم ﵀ .

فصل
خِصَال تميَّز بها شيخ الإسلام

الخصلة الأولى : أنَّهُ كان رَحِمَهُ اللهُ أمَّاراً بالمعروف، نهَّاءً عن المنكر.

في تلك الفترة وخاصةً بعد بناء المدارس اِنزوى كثيرٌ من العلماء، أقبلوا في مدارسهم على التَّدريس والعلم، وانشغلوا عن الواقع وعن المجتمع وعن الخِلْطَة بالنَّاس وتعليمهم وارشادهم والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وما كان كذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حصل سنة ٦٩٣ هـ في قصَّة عسَّاف النَّصراني ؛ هذا الخبيث سبَّ رسول الله ﷺ واحتمى ببعض أركان الدَّولة أو المتنفِّذين في الدَّولة لحموهُ من إقامة القِصَاص عليهِ، وجمهور العلماء أيُّها الأخوة الأكارم أنَّ من انتقص نبيَّنا ﷺ أو سبَّهُ فإنَّهُ أوَّلاً : مرتدٌّ ويقتل ولو تابَ توبةً نصوحاً وتوبتهُ تنفعهُ عِند الله لكن عندنا يجب أنْ يُقتل قِصاصًا لنبيِّنا وعرض نبيِّنا ﷺ ؛ فسبَّ النَّبيَّ ﷺ واحتمى ببعض المتنفِّذين، كما قلنا ببعض المتنفِّذين لحموه، وغضب عند ذلك شيخ الإسلام وكان معهُ أحد علماء الشَّافعيَّة اسمهُ (الفارقيُّ)، فحرَّضوا النَّاسَ وخطبوا فيهم وقادوهم فأخذوا هذا النَّصرانيَّ وقتلوهُ وسُجن بعد ذلك شيخ الإسلام وكَتبَ عند ذلك كتاب (الصَّارم المسلول على شاتم الرَّسول)، وهو كِتابٌ رائعٌ بل ودَسِمٌ، لا يقوى للأسف كثيراً منا في هذه الأيام معاشر طلبة العلم على قراءته، وألَّفهُ رَحِمَهُ اللهُ وعمرهُ نحو ٣٢ سنة وهو مطبوعٌ محققٌ في ثلاث مجلَّدات.

وكذلك موقوفهُ مع الصُّوفيَّة الرِّفاعيَّة الَّذين كانوا يسمَّون الأحمديَّة البطائحيَّة، ففي سنة ٧٠٥هـ ناظرهم بين يدي الأمير وأقام عليهم الحُجَّة، وكان هؤلاءِ يُمخرطون على النَّاس ويرهبونهم بالدُّخول في النَّار فلا تحرقهم، فعزم شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ على أنْ يدخل معهم النَّار وقال لهم بشرط ؛ أنْ يغسلوا أجسادهم بالخلِّ والماء الحارِّ.

وقال لهم : ندخل أنا وإيّاكم بشرط أنْ تغتسلوا وستحرقُ النَّار الكاذب منا، وعند ذلك لمَّا رأوا صدقهُ وكمال توكُّله ومعرفتهُ بِحِيَلِهم أحجموا، ومع ذلك قال لهم : ومع ذلك فلو دخلتم النَّار أو طرتم في الهواء وفعلتم ما فعلتم لم يكن هذا دليلاً على صحَّة ما تدَّعون من مخالفة الشَّرع.

وكما يقول ابن كثير :
وبعد ما غُلبوا وبُهتوا أقرَّوا بأنْ يلتزموا التزاماً تاماً بالكتاب والسُنَّة ومن خرج عنهما ضُربت عنقه.

وقد فعل هذا شيخ الإسلام رحمه الله لأنَّهُ صار لهم سطوةٌ على النَّاس وصار النَّاس يرهبونهم ويخافونهم ويظنُّونهم من الأولياء الَّذين لا ينبغي أنْ يُداس ذيلهم أو يخالف أمرهم أو يُغضبوا لأنَّهم يغضب الله لهم -بزعمهم- فكان لهم في القلوب موقعٌ هائلٌ وللنَّاس فيهم اعتقاد لا يزول بقول قائل.

وكذلك في سنة ٧٠٤ هـ استتاب (إبراهيمَ القطَّانِ) أحد المشعوذين وحلَقَ رأسهُ وقلَّم أظفارهُ وكانت طويلةً جداً، واستتابهُ من الكلام الفُحشي وأكل ما يغيِّر العقول من الحشيش ونحوهِ.
وكذلك استحضر (محمَّد الخبَّاز البلاسي) واستتابه من أكل المحرَّمات ومخالطة أهل الذِّمَّة، وفي الإسكندرية توَّب رئيسًا من رؤساء الصُّوفيَّة وأنكر على القلندريَّة.

وفي سنة ٧٢٦ هـ قُتِلَ (ناصر بن الشَّرف الهيتي) لكُفرهِ واستهتارته بآيات الله، وشهد قتلهُ ابن كثير وقبل القتل جاء ابن تيمية وقرَّعهُ على ما كان يصدر منهُ، وفي إحدى المرَّات عزَّر شيخًا يَدَّعي أنَّهُ المهدي.

وفي سنة ٦٩٩ هـ قام مع أصحابهِ على الخمَّارات والحانات في دمشق، فكسروا آنية الخمور وأراقوها وعزَّروا جماعةً من أهل الحانات ففرح النَّاس بذلك.

كما كان يخرج هو وتلامذتهُ ويكسرون الأحجار ويقلعون الأشجار الَّتي كانت تُعظَّم وتُعبد من دون الله، وهذا للأسف بلاء ما زالت الأمَّة تعيش رواسبهُ في كثيرٍ من العالم الإسلامي، فإذا احتاج واحدٌ منهم إلى شيء يذهب إلى قبر فلان أو إلى شجرةٍ أو صخرةٍ فيذبح لها ويهدي لها وما أشبهه هذا ويطلب منها من دون الله ﷻ.

ولمَّا تسامع النَّاس بمجيءِ التَّتر إلى دمشق وبدأ النَّاسُ بالفِرار وهَربَ الأمراءُ والقُوَّاد والعلماءُ والقضاة والفقهاء، وخلت البلد على عروشها، وسارت الحِمَارة - أكرمكم الله - إلى مصر بخمسِ مئة دينارٍ ذهباً، أفتى شيخ الأسلام ﵀ بأنَّ الخروج حَرام ولا يحلُّ، وقال : لو بُذل هذا المال الَّذي بُذل في الهرب في تجيش الجيوش وتهيئتها لكفى بالنَّصر بإذن الله تعالى، وكان يدور على أسوار مدينة دمشق في اللَّيل يعظ النَّاس ويُذكِّرهم ويقرأ عليهم آيات الجِهَاد ويثبِّت قلوبهم حتَّى ثبت النَّاس وسكن جأشهم وهدئوا وقرُّوا.

وكان قائد القلعة قد همَّ أنْ يُسلِّمها فكتب إليه شيخ الإسلام : لا تسلِّمها ولو لم يبقى منها إلَّا حجر، ووعدهُ وأوعدهُ حتَّى ثبَّت الله بكلامهِ قلبه فلم يُسلِّمها للتَّتر، وكان ذلك من أسباب ثبات دمشق في وجه التَّتر.

ثُمَّ ركب ﵀ على البريد سبعة أيام بغير إنقطاع، وكان يمسح الأيام السَّبعة على جواربهِ مرة واحدة من غير أنْ يخلع وهذا إجتهادهُ ﵀ في مثل هذه النَّوازل حتَّى ذهب إلى مصر وكلَّم السُّلطان والقُوَّاد وأفتاهم بوجوب الخروج لنصرةِ دمشق وأهل الشَّام وقتال التَّتر، ولمَّا رأى إحجاماً منهم أو تلكُّئاً، قال للسُّلطان : إنَّك إنْ لم تفعل خلعنا ولايتك ونقضنا بيعتك وأقمنا للشَّام سلطاناً يحرسهُ ويدفع عنه في المُلِمَّات ويأخذُ خيره وينتفع من فضلهِ في الرَّخاء، أمَّا أنْ تأخذ منا الضَّرائب وتفعل بنا وتفعل ثُمَّ تُسلِمُونا للأعداء فهذا لا يكون أبداً، فما زال بهم حتَّى قوَّى الله بكلامهِ قلوبهم فجهَّزوا جيشاً وخرجوا إلى الشَّام وكانت عند ذلك معركة (شقحب) سنة ٧٠٢ هـ وفيها انكسر التَّتار وانتصر المسلمون بحمد الله تعالى، وكانت هذه بداية النِّهاية للوجود التَّتري أو الخطر التَّتري في العالم الإسلامي.

وكان ﷺ أفتى النَّاس في هذه الوقعة بالإفطار، وكان معهُ كِسرة خُبز، ويطوف على العسكري فيأكل أمامهم ويحثُّهم على ذلك؛ ليَقووا على قِتال أعدائهم، وسأله أهل مِصرَ أنْ يُقاتِل معهم فقال: لا، السُّنَّة أنْ يقف الرَّجل تحت راية قومهِ.

وقال لِنائب السَّلطنةِ لمَّا أقبل التَّتر وبدأت المعركة: خذني إلى مقامِ المَوت أو إلى موقف الموت، فأخذه إلى مكان، وقد أقبَل وسَيل التَّتر منهمرٌ كأنَّه الجراد، قال: هذا مقام الموت. فرَفع رأسه إلى السَّماء وحرَّك شفتيه، ثُمَّ ركض فرسه، وخاض في غِمارِهم ﷺ يُقاتل في سبيل الله.

وهكذا كذلك كان جِهادهُ للنَّصارى، كما قُلنا شارَكَ في فتح (أنطاكيَا) سنة ٦٦٦، وقُلنا هي آخر معاقل النَّصارى في بِلاد الإسلام.

قال الإمام البزَّار ﷺ:
وحدَّثوا أنَّهم رأوا مِنه في فتح عكَّة أموراً مِن الشَّجاعةِ يَعجز الواصف عن وصفِها، قالوا: ولقد كان في سبب تملُّك المسلمين إيَّاها بفعلهِ ومشورتهِ وحسن نظرهِ ﷺ.

وقد سُجِنَ ﷺ مِراراً لِجُرأتهِ، وقولهِ للحقِّ، وثباتهِ على الحقِّ، وكان في السِّجن، فلمَّا دخل؛ وجدَ المساجين مشغولين مُضيِّعين لِلصَّلاة، مشغولين بِلعب الشِّطرنج، والنَّرد، فأقبَلَ عليهم فأمرهُم، ونهاهُم، ووعظهُم، وجعل يُعلِّمهم حتَّى صار طلب العلم في السِّجن أحسن بِكثير مِن المدارس الشرعيَّة خارج السِّجن، حتَّى كان كثيرٌ من طلبة العلم يختَارون السِّجن ليتعلَّموا عِندهُ ﷺ.

وقَصَصَهُ في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر لا يُحصيها إلَّا الله، وهذا ميراث أنبياء الله عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهذهِ مُهمَّة الرُّسل والأصل هيَ من بعدُ مهمَّةُ ورثَتِهم، وقد بلغ في ذلك ﷺ الغاية القُصوى.

والأمر الثَّاني الَّذي تميَّز به شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الثِّقة المُطلقة، والتَّوكل التَّام، وقوَّة القلب، والثِّقة بهذا الدِّين، وبنصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

في معركة شُقْحُب، كان يقول لِلجيش: واللهِ إنَّكم لَمنصورون، فيقولون: قُل إنْ شاء الله، فيقول: إنْ شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وكان يقول لهم: واللهِ إنَّه لمكتوبٌ في اللَّوح المَحفوظ أنَّكم منتصِرون، وكان كذلِك وليس هذا مِنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عِلماً لِلغيب، ولا قراءةً لِما في اللَّوح المَحفوظ؛ لكِنَّها الثِّقة بِوعد الله، ونصره، وحسن الفقه لسنن اللهِ، وسُنَّتِهِ في هذا الكون وفي هذه الأُمَّة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وممَّا يُشبِهُ هذا أيضاً: أنَّه في مِصر سنة ٧٠٨ هـ سُجِنَ، كان السُّلطان اسمه: قَلاون، جاء إلى الكرك هنا فانقلب عليه السُّلطان سُمي (الجاشكنير بيبرس)، وكان هذا (الجاشكنير بيبرس) مُعظِّماً لابن عربي الصُّوفي، فلمَّا تكلَّم شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عربي وكَفَّره، وأظهر كُفرهِ وزندقته، غضب هذا السُّلطان، ووزَّه بعض الصُّوفيَّة، فَسَجن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مصر، في القاهرة؛ ثُمَّ بعد ذلك عزمَ على نقله إلى الإسكندريَّة، والسَّبب في هذا: أنَّ الإسكندريَّة في تلك الفترة كانت تموج بالصَّابِئة، والفلاسِفة، والفِرَق الضَّالة؛ فَطمعوا أنْ إذا ذهب إلى هُناك أنْ يَقتُلَهُ بعض هؤلاء، فيَرتاحوا مِنه.

فلمَّا جاء الأمر بإخراجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال عن دولة الجاشكنير بيبرس: زالت أيَّامه، وانتَهت رياستُه، وقَرُبَ إنقِضاء أجله.

ويقول خادِمه:
لمَّا كان بعد العصر، وجاء الأمر بإخراجِه، وقفت أبكي، فقال لي: لا تبكي، ما بقِيَت هذه المِحنة تُبطئ.

ولمَّا رِكِبَ على باب الحبس، قال له رجلٌ: يا سيِّدي، هذا مَقَام الصَّبر، فقال: بل هذا مقام الحمد والشُّكر، والله إنَّه نازِل على قلبي مِنَ الفرحِ والسُّرور شيء لو قُسِّم على أهل الشَّام ومصر لفضل عنهم، ولو أنَّ معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقته، ما أدَّيت عُشر هذه النِّعمة الَّتي أنا فيها.

وقال لخادمه: يا إبراهيم، انزل إلى الشَّام، وقُل لِأصحابِنا: وحقِّ القرآن، وحقِّ القرآن، وحقِّ القرآن، ما بَقِيَت هذه المِحنة تُبطئ، وستنفَرِج قريباً فوق ما في النُّفوس، ويقلب الله مملكة بيبرس أسفَلَها أعلاها، ولَيجعلنَّ الله أعزَّ من فيها، أذلَّ من فيها وهذا الَّذي حصل، (والبيبرس هذا ليس هو بيبرس المَشهور صاحب قطز، هذا كان بعد ذلك الجاشنكنير بيبرس وكان صوفيّاً مُنحرفاً) وهذا الَّذي حصل، فما هي إلَّا عشرة أشهر حتَّى قُتِل هذا السُّلطان، ورجع سُلطان قَلاون، وكان مُعظِّماً لشيخ الإسلام، ومُحِبّاً له، فأخرَجَهُ من السِّجنِ، وجاءَ به وأكرَمه مرَّةً أُخرى.

والأمر الثَّاني الَّذي تميَّز به شيخ الإسلام ﵀ وممَّا يتعلَّق بهذا أيُّها الإخوة: الثِّقة كما قُلنا بدين الله، وبِمنهجه، وبالحقِّ الَّذي أنزلهُ الله على مُحمَّد ﷺ. للأسف هذه خصلةٌ أو ظاهرةٌ قديمة، يوم ترجم المسلمون فلسفة اليونان والإغريق وسعى بعض النَّاس ممَّن تأثَّر بها وانبهر بها إلى توطينها داخل منظومة الثَّقافة الإسلاميَّة، بأسماء إسلاميَّة، وصاروا يُقدِّمونها على كتاب الله وسُنَّة النَّبيِّ ﷺ ويجعلُونها أصلاً يرجعوا إليه أو يُردُّ إليه كِتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ.

ومَن قرأ كلام شيخ الإسلام يجد في كلامه طعم لا يكاد يجده عند غيره؛ طعم العِزَّة، والثِّقة المُطلقة والتَّامَّة بِكِتاب الله وسُنَّة النَّبيِّ ﷺ.

وأنَّ شمس الرِّسالة الَّتي أشرقت على يد نبيِّنا ﷺ على هذه الدُّنيا هي: أكمل وأفضل وأتمُّ شمسٍ، وأكمل رسالة، لا يحتاج المُسلمون معها إلى شيء غيرها أبدًا.

كما قُلت: طعم العِزَّة هذا يكاد يُفقد في كثير من العُلماء المُتأخِّرين، لكن الإنسان يجده واضحاً حاضراً في كلام شيخ الإسلام ﵀ بشكل عجيب.

الأمر الثَّالث وهو: موقفه من المُخالفين؛ الَّذي يُريد أنْ يَعيش أيُّها الإخوة الأكارِم لِأُمَّةٍ، ويعيش لدينٍ، ويعيش لعقيدةٍ، ويعيش لمنهج، ويعيش لله ﷻ؛ لا يجد وقتاً لِلمُناوشات الكلاميَّة، والسَّخط، والجدَل، والمِراء، والقيل والقال، والدِّفاع عن النَّفس، والخوض والتَّحرُّشِ بِالمُسلمين، ومُصارَعَتِهِم، ومُقَارَعَتِهِم، لا يجد وقتاً لِمثل هذا لِأنَّ نفسه قد زادت واضمحلَّت، فهو إنَّما يعيش لربِّه ﷻ ولدينه، ولقرآنه، ولأُمَّته، وهذا الَّذي يعيش كبيراً ويموت كبيراً بإذن الله تعالى، وهكذا كان شيخ الإسلام ﵀.

لمَّا رجع السُّلطان قَلاون، وأخرَجَ شيخ الإسلام ﵀ أراه فتاوى بعض العُلَماء مِن خُصومِه، ممَّن حسدوه، ونقموا عليه مُخالفته إيَّاهم في بعض المسائل العَقدِيَّة، كانوا قد أفتوا وكتبوا بِذلك خُطوطهم لِلسُّلطان قبله بِقتل شيخ الإسلام، فأراه السُّلطان قَلاون ذلك، وقال: لا بُدَّ من قَتْلِهم، فرفض شيخ الإسلام ﵀ وقال: لا والله لا تقتلهم، فإنَّك إنْ فعلت ذلك؛ لا تجد مثلهم!
قال: إنَّهم أرادوا قتلك؟!، فقال: من أذاني فَهو في حِلٍّ، ومن أذى الله ورسوله ﷺ فالله يَنتقِم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، ودافع عنهم حتَّى أبطل رأي السُّلطان في قتلِهِم.

حتَّى قال ابن مخلوف ﵀:
رَحِمَ الله شيخ الإسلام، جهِدنا أنْ نقتُله فَلَم نَقدر، فلمَّا قَدِر علينا عفى عنَّا، بل ودافع عنَّا، حتَّى رُفع السَّيف عن رُؤوسهم فَلَم يُقتَلوا.

ومن القَصَصِ في هذا أيضاً، ما ذكرهُ ابن عبد الهادي في العُقود الدُّريَّة قال:
في رابع شهر رَجَب مِن سنة ٧١١ هـ، لأنَّه تكلَّم عن ابن عربي والصُوفيَّة فجاء هؤلاء فضربوه رحمه الله فبلغ الخبر تلامذة الشَّيخ ومحبِّيه، فتوافدوا وتتابع النَّاس لمَّا بلغهم الخبر رجالاً وفرساناً، وقالوا له : ياشيخ هؤلاء قد جاءوا لو أمرتهم أنْ يهدموا مصرَ على أهلها لفعلوا، قال : إمَّا أنْ يكون الحقُّ لي أو لله أو لكم، فإنْ كان الحقُّ لكم ولا تريدون أنْ تستفتوني فافعلوا ما شئتم أنا لا علاقة لي، وإنْ كان الحقُّ لي فهم في حلٍّ منه وقد عفوت عنهم، وإنْ كان الحقُّ لله ؛ فالله يأخذ حقَّه كما يشاء ومتى يشاء سبحانه .

قالوا: فهذا الَّذي فعلوه معك هل هو حلالٌ لهم ؟ قال لهم : ما يُدريكم ؟ لعلَّهم يكونون مأجورين، قالوا: سبحان الله يضربونك ومأجورون ! قال : نعم لأنَّ مقصودهم أنْ ينصروا دين الله، هؤلاء ناس يظنُّون أنَّهم على الحقِّ وأنَّهم ينتصرون لدين الله وأنَّهم يدافعون عن دين الله سبحانه وتعالى، قد يراهم مجتهدون مخطئون والله يغفر لهم وقد عفوت عنهم، فما زال بهم حتَّى هدَّأهم وسكَّنهم وفرَّق جمعهم بعد ذلك رحمه الله.

وهذه قضيَّة مهمَّة أيُّها الإخوة الأكارم ؛ أحياناً للأسف يكون من حول الدَّاعية أو العالم أو الشَّيخ هم السَّبب في إثارة الفتنة (يا شيخ فلان يقول عنك كذا - لابدَّ أنْ تنتقم لابدَّ أنْ نردَّ عليه .. لابدَّ لابدَّ) فيهيِّجونه لينتقم لنفسه وينتصر، فيسكبون الزَّيت على النَّار وتشتعل الفتن بين المسلمين، وما هكذا ينبغي أنْ نكون نحنُ معاشر المسلمين، بل ينبغي أنْ لا ننقل الكلام وأنْ نذكِّر أئمَّتنا وعلمائنا والدُّعاة إلى الله أنْ لا ينشغلوا بالدِّفاع عن أنفسهم وبالشَّحناء مع المسلمين وأنْ يكون همُّهم إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى وليس الإنتصارَ لأنفسهم.

والأمر الرَّابع وذكرناهُ من قبل، لكن (الإيمان العجيب) الَّذي تحلَّى بهِ شيخ الإسلام ﵀ ولهُ في ذلك كلام يدلُّ على أنَّهُ قد بلغ الغاية القصوى في الإيمان وذاق حلاوته ﵀ كان يقول :

المحبوس من حُبس قلبه عن الله، ليس المحبوس الَّذي أُودع سجناً ضيقاً ؛ ولكن المحبوس من حُبس قلبهُ عن الله، والمأسور من أسرهُ هواه، من أسرهُ هواه فتحكَّم فيهِ وقادهُ إلى الرَّدى وإلى المعاصي وإلى عصيان مولاه ﷻ.

يقول الإمام ابن القيِّم ﵀ :

وسمعته يقول : الذِّكر للقلب مثل الماء للسَّمك، فكيف يكون حال السَّمك إذا فارق الماء ؟ وحضرتُهُ مرَّة صلَّى الفجر ثُمَّ جلس يذكر الله إلى قريب من إنتصاف النَّهار، ثُمَّ التفت إليَّ وقال : هذه غدوتي ولو لم أتغدَّى سقطت قوَّتي سائر يومي.

نعم أيُّها الإخوة الأكارم ؛ إنَّ الإنسان وقد ركَّبهُ الله من طينٍ ومن روح يحتاج إلى غذاء لجسدهِ الطِّيني ولقلبهِ الرُّوحي .

وكما أنَّ الإنسان لا يقوى على الحركة والذَّهاب والإياب إذا امتنع عن الطَّعام وتغذية الجسد بالأطعمة، كذلك فإنَّ قوَّة العالم والدَّاعية تنهار وتسقط وتضعف وينكص على عقبهِ وينتكسُ إذا أغفل تغذية قلبهِ بذكر الله ﷻ، هذا القلب لابدَّ لهُ من غذاء مستمر ليقوى على الصُّمود والصَّبر في ساحة المعركة وخاصةً إذا كان الإنسان قد انتُدِب لأمرٍ جللٍ وعاش حياتهُ مجاهداً في كلِّ جبهة بسيفهِ ولسانهِ وقلمهِ، في كلِّ جبهة وفي كلِّ مكانٍ وفي كلِّ وقت وفي كلِّ حين، مثل هذا إنْ لم يكن وثيق الصِّلة بالله، عظيم الإستمداد من الله ما أسرع أنْ ينتهيَ زادهُ فتقف بهِ مركبته ويقف ولا يتحرك.

وهذا الأمر أيُّها الإخوة ما أحوجنا إليه، وقد جمدت منَّا العيون وقست منَّا القلوب ولم يعد لكلامنا حلاوة ولا نداوة ولا رِقَّة ولا أثر والله المستعان.

يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله عن أثر الذِّكر وأنَّه يجعل الإنسان يعيش سعادة وحلاوةَ عيشٍ لا يجدُ غيرهُ لها نظيراً في متع الحياة الحسيَّة، يقول:
وعلم الله ما رأيت أطيب عيشاً ولا أنضر وجهاً ولا أحسن حياةً من شيخ الإسلام وهو في السِّجن مع ما كان فيهِ من الشِّدة والضِّيق والعنت وضدِّ الرَّفاه بل والخوف، وكنَّا إذا ساءت بنا الظُّنون وأظلمت في وجوهنا الدُّنيا نذهب إليهِ في السِّجن فما هو إلَّا أنْ نراه ونسمع كلامهُ حتَّى يذهب ما بنا وينقلب قلقنا إلى رضاً وطمأنينة، وخوفنا إلى سكينة وسروراً وفرحاً بالله سبحانه وتعالى، ومثل هؤلاء قليل في هذا الزَّمان؛

وقد كنَّا نعدُّهم قليلاً   فقد صاروا أقلَّ من القليلِ

والله المستعان.

فصل
وفاة شيخ الإسلام

في آخر عمرهِ رحمه الله لمَّا سُجن ببعض الفتاوى الَّتي أغضبت بعض الأمراء، أقبل على كتاب الله سبحانه وتعالى يقرؤه حتَّى ختمه بضعاً وثمانين مرَّة وانتهى إلى قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، فمات رحمه الله وخرج أهل دمشق كلُّهم في جنازتهِ، وكانت جنازة قلَّ نظيرها في تاريخ الإسلام بعد جنازة الإمام أحمد رحمه الله ورضي عنهم جميعاً وأرضاهم، وكان ذلك سنة ٧٢٨ هـ.

فصل
أسباب الحرب على شيخ الإسلام

في سنة ١٩٨٣ للميلاد قبل نحو عشرين سنة عملت الـ CIA الأمريكية - سندخل في السِّياسة الآن - عملت في سنة واحدة ١٢٠ ندوة لدراسة الصَّحوة الإسلاميَّة، وهذا الخبر قطعي، وقد حدَّثني بعض الإخوة الكبار من طلبة العلم الثِّقات ومن المتابعين والمهتمِّين قال لي:
إنَّ خُلاصة هذه التَّقارير وعُصارتها أنَّ مِدَاد الصَّحوة الإسلامية وغذائها هو كلام شيخ الإسلام ﵀ وتلميذه ابن القيِّم، ولذلك لابدَّ أنْ يُكسر هذا الرَّجل، ولابدَّ أن يُحارب ولابدَّ أنْ يشوَّه، ولابدَّ أنْ يُطعن فيهِ حتَّى يُحال بين الأمَّة وبين الإنتفاع به.

وحقيقةً أيُّها الإخوة الأكارم ؛ شيخ الإسلام ﵀ إنَّما يكرهه هؤلاء لأمورٍ أربع :

الأمر الأوَّل : أنَّ شيخ الإسلام ﵀ من أكثر من حرَّر في العصور المتأخرة ؛ حرَّر العقل المسلم من سجن الخرافة الَّتي ضربت بجرامها على العالم الإسلامي عن طريق الصُّوفيَّة والرَّافضة، وصار المسلم مشعوذاً بهلولاً لا يأخذ بشيء من أسباب الدُّنيا ويركن إلى الدَّعة والرَّاحة ولا يُحسن أنْ يتعاطى مع سنن الله الكونيَّة، ولا يأخذ ويأنف أنْ يأخذ بالأسباب، وهذه لها مسبِّبات كثيرة، منها : سهم الأشاعرة الَّذين انتشر مذهبهم في ذلك الوقت لمسألة القدر، فجاء شيخ الإسلام ﵀ وحرَّر العقل المسلم وأيقظهُ من ثُباتهِ وجعل مردَّهُ ومنبعهُ فقط كتاب الله وسنَّة النَّبيِّ ﷺ وعلَّمهُ كيف يتعاطى مع الأسباب وكيف يبني الدُّنيا ويهيئ أخرته برضى الله ﷻ.

وهذا الأمر لا يُدرك الإنسان أو لا يستطيع أنْ يعرف عظيم الأثر الَّذي أحدثهُ شيخ الإسلام إلَّا عندما يقرأ شيئاً من حالة المسلمين من الخرافة الَّتي انتشرت في تلك الفترة وبعد ذلك أيضاً في القرون المتأخِّرة وخاصةً في القرني الثَّالث عشر والرَّابع عشر، عندما تقرأ حالة المسلمين تقول سبحان الله هذه أمَّة التَّوحيد ؟ هذه أمَّة الإسلام ؟ هذه أمَّة القرآن ؟ هذه أمَّة محمَّد ﷺ ؟ عجيب !

حتَّى صَدَقَ في الأمَّة تلك الفترة قولت (لوثر ستودارد) وهذا مؤرِّخ أمريكي صاحب كتاب (حاضر العالم الإسلامي) الَّذي حشَّى عليه شكيب أرسلان ﷺ ، يقول عن القرنين المؤخَّرين :
بُدِّلت الشَّريعة، غُيِّرت الشَّريعة، وانتشرت الخرافة وكثر المشعوذون، وغيِّبت فضائل الدِّين، وعُبدت القبور، وأُشرك بالله سبحانه، وذهبت فضائل القرآن من الأمَّة، حتَّى لو بُعثَ فيهم نبيُّهم لأطلق فيهم اللَّعنة الَّتي أطلقها في المشركين ولقاتلهم كما قاتل المشركين الأوائل.

وهذا الوصفُ من هذا الكافر حقيقة وصف دقيق، ومن قرأ واطلع - وفي هذا نذكِّر ونحثُّ كثيراً على قراءة كتاباً بعنوان : (الإنحرافات العقديةَّ والعلميَّة في القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر الهجريين) لأحد الباحثين اسمه : (علي الزَّهراني)، وكان بإشراف الشَّيخ محمَّد قطب ﷺ ويقول في مقدِّمته:
أحسب أنِّي كنت أوَّل من نبَّه إلى أنَّ الإنحراف العقدي الَّذي ضرب الأمَّة بجرانها في القرون المتأخِّرة كان سبب الثَّمرة المُرَّة الَّتي نعيشها ونحياها ولكنِّي أعترف مع ذلك أنِّي كنت إنَّما أدركُ من ذلك الخطوط العريضة، لكن الباحث بجلدٍ وصبرٍ استطاع أنْ يلتقط الخيوط الدَّقيقة ليرسم لنا صورة دقيقة وإذا الأمر أفظع وأفجع ممَّا كنت أتصوَّر وأتخيل.

وحقيقة شيء -سبحان الله- كان عجيباً، شيخ الإسلام كما قلت من تربَّى على كتبه وقرأها ونشأ في محاريبها؛ يتحرَّر عقله من الخرافة ومن التَّشعوذ ويصبح إنساناً سوياً بإذن الله تعالى يتعاطى مع سنن الله في هذا الكون كما يريد الله ﷻ.

الإنحرفات العقديَّة والعلميَّة في القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر.

الأمر الثَّاني : أنَّ شيخ الإسلام رحمه الله وقد عاش زماناً مثل زماننا في التَّفكك وتسلُّط الصَّليبين ثُمَّ التَّتار؛ كان أكثر من نظَّر وطبَّق الجهاد عمليّاً وتحدَّث عن حدوده، وما ينبغي للنَّاس وللأمَّة في مثل هذه الأوضاع، ولذلك لا يمكن أنْ تجد إنساناً في هذه الأيام يريد أنْ يُحي الجهاد وفق ضوابط الشَّرع لا يكون مرجعه الأصلي الأوَّل بعد كتاب الله و سُنَّة النَّبيِّ ﷺ كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

و هذا الأمر -أعني الجهاد- لا شكَّ أنَّه هو السَّيف الَّذي يُخيف أعداء الله و يُرهبهم و يجهدون على طمسه ووأده وقلعه وإماتته من النُّفوس و نفيه من القلوب فضلاً عن أنْ يُطبَّق في الواقع.

ومن الطَّرائف الَّتي تُذكر هنا، أوَّل ما حصلت مشكلة الجزائر خرج وزير الدَّاخلية الجزائري يقول : يجب أنْ تقبضوا على ابن تيمية هذا، يجب أنْ تقبضوا على ابن تيمية، لأنَّه يسمع النَّاس تقول : أفتى شيخ الإسلام بكذا و إنَّ كان بعض النَّاس يُسيؤن الفهم و يَغْلُون في هذا، لكن المقصود هنا أنَّ من أراد أنْ يفقه حقيقة الممارسة العمليَّة للجهاد لا يستغني عن كلام شيخ الإسلام كما قلت لتشابه واقعه مع واقعنا وظروفه مع ظروفنا فكانت فتاواه تطبيقاً عمليّاً لكلام وتنظير أئمَّتنا السَّابقين رحمهم الله .

والأمر الثَّالث : أنَّ شيخ الإسلام أيضاً هو من أكثرِ من تحدَّث عن الحكم بغير ما أنزل الله، وعن حال من يُفارق الشَّريعة ويحتكم إلى غير كتاب الله وسُنَّة النَّبيِّ ﷺ وليس هذا لأن أئمَّتنا أهملوا فقد تكلَّموا ؛ لكن قُلنا هو كان قد اشتبك عمليّاً مع أوَّل إنحراف عمليٍّ في تاريخ الإسلام.

عندما أسلم قازان أو زعم هكذا أنَّه أسلم وبقي يحتكم هو والتَّتار إلى الياسق ووقعت الشُّبهة عند كثير من المسلمين، وهذا الأمر لا شكَّ أنَّه يزلزل العروش والكراسي ويُخيف أعداء الله تعالى من الطَّواغيت وغيرهم لأنَّهم لا يريدون أنْ يُدرك النَّاس حقيقتهم وموقعهم من دين الله سبحانه، وأكثر -كما قلنا- من جلَّى هذا الأمر و تحدَّث عنه هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

والأمر الرَّابع : أنَّ شيخ الإسلام ﵀ أيضاً من أكثر من تكلَّم عن حكم أو أحيا مفهوم الموالاة والمعاداة، الموالاة لله ولرسوله ﷺ ولهذه الأمَّة والبراءة والمعاداة والبغض لأعداء الله -سبحانه- من الفرق الباطنيَّة ومن الكفَّار واليهود والنَّصارى وأهل الذِّمَّة وغيرهم .

وتذكرون أنَّنا ذكرنا في رمضان موقفه مع السُّلطان قلاوون، السُّلطان قلاوون الَّذي أخرجه من السِّجن بعد أنْ رجع سُلطاناً سنة ٧٠٩ وجلس في مجلس السَّلطنة وعرض عليه الوزير طلباً تقدم به أهل الذِّمَّة في دولة الإسلام على أنْ يعرضون فيه أنْ يدفعوا سبع مئة ألف فوق الجزية الَّتي يدفعونها مقابل أنْ يُؤذن لهم أنْ يلبسوا عمائم كعمائم المسلمين، لأنَّ عمر ﵁ وبإجماع الصَّحابة أخذ عليهم أنْ لا يلبسوا زيَّ المسلمين وأنْ يلبسوا الزِّنَّار وما أشبه هذا ليتميَّزوا عن المسلمين، فلا يُكرمون إكرام المسلم، وعلى هذا سرى الخلفاء وأئمَّة الخير والرَّشاد على مرِّ تاريخ الإسلام، فطلبوا فقط أنْ يدفعوا سبع مئة ألف مقابل أنْ يُسمح لهم بلبس عمائم المسلمين !

يقول ابن كثير ﵀ :
فسأل العلماء فسكتوا، وقام شيخ الإسلام فتكلَّم واحتدَّ في الكلام والسُّلطانُ يُعرض عنه ويخفضه ويرفِّقه حتَّى يهدأ يقول له : برفق، و شيخ الإسلام يتكلَّم، ثُمَّ جثى على ركبتيه وتكلَّم بكلام شديد لم يستطع أحد أنْ يتكلَّم مثله أو قريباً منه، حتَّى أبطل عرضهم ورُدَّ طلبهم وقال للسُّلطان : أُعيذك بالله أنْ تكون في أوَّل مجلس جلسته في أُبَّهة الملك وقد ردَّ الله عليك ملكك تُعزُّ أهل الذِّمَّة وتذلُّ أهل الإسلام، ثُمَّ كان بعد ذلك أنْ أُلغي هذا الأمر.

وقد ألَّف شيخ الإسلام ﵀ كتاباً من أروع كتبه وهو : (إقتضاء الصِّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)، وأنَّ المسلم الَّذي أمنَ بالله حقاً ووصلت حقيقة الإيمان إلى قلبه لا يرضى لنفسه أنْ يكون صورةً -حتَّى في الظَّاهر- مع أهل الباطل والضَّلال.

ويقـول : ومـا كنـت أظـنُّ أنَّ أحـداً ممَّـن وقـر الإيمـان في قلبـه وخَلُصـت إليـه حقيقـة الإسـلام الَّـذي هـو الإسـلام -لسـت أعـني بذلـك مجـرد التَّـوسم بـه ظاهـراً- الَّـذي خَلُـص إلى قلبـه حقيقـة الإسـلام ليسـت فقـط المظاهـر، هـو مسـلم لكنَّـه لم يُـدرك ولم يفقـه حقيقـة الإسـلام، يقـول : لم أكـن أظـنُّ أنَّ أحـداً وقـرت حقيقـة الإسـلام في قلبـه يشـكُّ في هـذا الأمـر، يعـني أنَّ المسـلم يجـب أنْ يتميَّز وألَّا يكـون ظاهـراً كاليهـود و النَّصـارى و الكفَّـار كما تميَّز عنهـم باطنـاً بتوحيـد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

الَّذي يتربَّى على كتب شيخ الإسلام لا يمكن أنْ يُفكِّر أنْ يمدَّ رجله ليُصافح أعداء الله واليهود والنَّصارى في هذا الزَّمان ويُهادنهم ويُسالمهم ويصبح وإيَّاهم دولة أو شعباً واحداً وأنْ يُطبِّع معهم، لا يمكن لإنسان قرأ كلام شيخ الإسلام وتربَّى عليه أنْ يرضى بهذا الأمر.

وفي هـذا الزَّمـان الَّـذي يُـدعى فيـه بزعم اليهـود، بزعم أعـداء الله إلى الإبراهيميَّـة وهي النُّسـخة المنقَّحـة مـن الدَّعـوة الماسـونيَّة القديمـة، الأخـوَّة والمحبَّـة والمسـاواة، هـذه الدَّعـوة القديمـة؛ شـعارات الماسـونيَّة القديمـة طُـوِّرت ونُقِّحـت عـلى يـد بعـض طواغيـت العـرب لتُصبـح الإبراهيميَّـة، ليـذوب المسـلم الموحِّـد مع اليهـودي والنَّصراني، هـذه الدَّعـوة الباطلـة الَّـتي هي كُفـرٌ بالله، وقـد أجمـع علمـاء الإسـلام عـلى أنَّ مـن دعـا إلى المسـاواة بـين اليهـود والنَّصارى والمسـلمين في الحقـوق والواجبـات هـو كافـر مرتـدٌّ خـارج مـن المِلَّة ؛ ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ .

أنا الموحد المسلم أكون مثل هذا المشرك الَّذي ينسب الولد إلى الله سبحانه ؟!
هـذا لا يمكـن أنْ يرضى بـه مـن عـرف طعـم التَّوحيـد وذاق حـلاوة الإيمـان وأدرك بدهيَّـات وضروريَّات كتـاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

في هذا الزَّمان الَّذي يُراد لنا فيه أنْ نذوب وأنْ نفقد هويّتنا ونصبح ذيلاً منسوخاً ونسخة مشوَّهة لأعداء الله، وأنْ نذوب فيهم وفي حضارتهم الغلَّابة في هذا الزَّمان، والله المستعان .

يَبرزُ شيخ الإسلام رحمه الله سداً منيعاً في وجه هذا الذَّوبان، وكما قلت لا يمكن لإنسان قرأ كلام شيخ الإسلام وفَقِهَهُ وتربَّى على كتبه أنْ يرضى أو يفكِّر ولو من بعيد أنْ يعيش هو واليهود والنَّصارى في سلام ووئام تحت غير حكم الله سبحانه، عند ذلك إذا كانوا أهل ذمَّة نُحسن إليهم ونؤمِّنهم لكن هذا شيء وأنْ نذوب فيهم شئ آخر.

ولمَّا تكلَّم عن صلاح الدِّين ونور الدِّين وكيف نصرهم الله سبحانه وتعالى قال : و صلاح الدِّين وأهل بيته ونور الدِّين وأهل بيته، لم يكونوا يوالون النَّصارى ولا يستعملون أحداً منهم في شئ من أمور المسلمين ولذلك نصرهم الله وأعزَّهم وكبت عدوَّهم.

وهذا على مرِّ التَّاريخ؛ ما استعمل أحد السَّلاطين وزيراً أو سلطاناً أو والياً من اليهود أو النَّصارى إلَّا أذلَّه الله تعالى، وخيَّب رأيه وقلَبَ الأمر عليه والله المستعان .

والعجيب أيُّها الإخوة الأكارم ؛ أنَّ شيخ الإسلام مع كثرة الميادين والجبهات الَّتي خاضها مع المبتدعة بأصنافهم، ومع مقلِّدة الفقهاء، ومع التَّتر، ومع الصَّليبين ومع غيرهم، مع ذلك كان عالميَّ الدَّعوة ؛ وكتب رحمه الله رسالة عجيبة إلى ملك قُبرص يدعوه إلى الله تعالى ويأمره أنْ يرفق بمن عنده من المسلمين وأنْ يُحسن إليهم في رسالة عجيبة.

وقد ألَّف أيضاً رحمه الله كتابه : (الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المسيح)، فردَّ على النَّصارى وبيان بطلان دينهم وإقامة الحُجَّة عليهم من كتابهم، في كتاب لم يُؤلَّف في تاريخ الإسلام أعظم منه.

خاتمة :

هذه بعض خصائصه، ولذلك قلنا ونختم في ذلك ؛ ليس عجيباً بعد ذلك أنْ يُحارب شيخ الإسلام وأنْ تشوَّه صورته، وأنا أنصح كلَّ مسلم أنْ يحاول أنْ يقرأ شيئاً من كلامه وبعض كتبه وأنْ يتعرَّف على هذا الإمام عن قرب.

ونسأل الله تعالى أن يُحيي فينا مثل ابن تيمية، وأنْ يردَّنا إلى دينه ردَّاً جميلاً، وأنْ يُعلي كلمته، وأنْ ينصر دينه، وأنْ يجعلنا من جنده، أمين أمين، وصلَّى الله على نبيِّه الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.





الفهرس :